

نحو مدرسة إسلامية في علم النفس

أ. د. بوفلجة غيات - جامعة وهران 2 - الجزائر
البريد الإلكتروني: ghiaat_boufelja@yahoo.fr

ملخص:

لقد مر وقت على العالم الإسلامي كان فيه مستعمرا سياسيا واقتصاديا و ثقافيا. وإن استقلت هذه الدول سياسيا، إلا أنها لازالت لم تستقل ثقافيا واقتصاديا. إذ لازال زاد المسلم من الأكل والثقافة من إنتاج الغرب والشرق، بالرغم من بعض المحاولات الجدية التي يقوم بها علماءنا وباحثوننا. لثقافة الفرد ومحيطه آثار على سلوك الفرد وتصرفاته، وهو ما يمنعنا من تطبيق النظريات الغربية أو الشرقية في العلوم الاجتماعية على مجتمعنا الإسلامي. إذ لا يمكن دراسة وفهم الشعوب الإسلامية وتصرفات أفرادها إلا من خلال منظار خاص يأخذ في عين الاعتبار كلا من التاريخ والحضارة والثقافة والعقيدة. من هنا نستنتج أن الإسلام بأوامره ونواهيه، وما أتى به طبيعة النفس البشرية، مساهمة ثمينة في فهم الإنسان المسلم، وتتضمن الشرح وتوضيح طبيعة الإنسان، وأسراره ودوافعه ومكوناته النفسية، وهو ما يحتاج إلى تنظير بطريقة علمية حديثة، تساهم في إيجاد نظرية إسلامية في علم النفس. **الكلمات مفتاحية:** علم النفس الإسلامي، الإيمان بالله، المجتمع الإسلامي، الإضرابات النفسية.

Towards an Islamic school in psychology

Abstract

The Islamic world was colonised politically, economically and culturally. The Muslim countries became independent politically, but are still colonised culturally and economically. We still use West and the East theories of social sciences including psychology, and that made it difficult to understand Muslim people and solve their psychological troubles.

The individual's behaviour is affected by his culture of his environment. That prevents psychologists from applying Western theories of social sciences to understand Muslim societies.

Islam with through his commands and prohibitions, help us to understand the nature of the human psychology. The contribution of Islam is precious in the understanding of human behaviour and the secrets of his motivators. The Islamic psychology needs to be theorised in a scientific manner, and that contribute to the creation of an Islamic theory in psychology.

Keywords: Islamic psychology, belief in Allah, Muslim society, psychological disorders.

مقدمة :

لقد مر وقت على العالم الإسلامي كان فيه مستعمرا سياسيا واقتصاديا و ثقافيا. وإن استقلت هذه الدول سياسيا، إلا أنها لازالت لم تستقل ثقافيا واقتصاديا. إذ لازال زاد المسلم من الأكل والثقافة من إنتاج الغرب والشرق، بالرغم من بعض المحاولات الجدية التي يقوم بها عمالنا ومتقنونا.

لقد حاول الاستعمار بكل إمكانياته طمس حضارتنا ومقومات شخصيتنا، لكي يثبت أننا أغبياء وعالة على المجتمع الإنساني كله. فهو يريد إقناعنا أن لغتنا ميتة لا تصلح لمسايرة العلوم والتكنولوجيا، وديننا لا يصلح في عصر الطاقة الذرية والصعود إلى القمر. فهو يعمل على تكوين عقد نفسية لذا أفراد شعبنا وأمتنا ويتناسى أنه سبب تخلفنا. إذ يحاول إيهامنا أن العلم و العلماء للغرب الذي اخترع ولازال يخترع. كما يعمل الاستعمار على إخفاء إسهامات المسلمين، إذ لا نكاد نجد اعترافا لما قام به المسلمون الأوائل من بناء أسس وقواعد غالبية العلوم الحديثة.

إن تقبل كثير من علماء العالم الإسلامي لهذه الأفكار نتيجة مرسبات الاستعمار، إلا أن هناك أصوات متعددة تنادي وتعمل على إعادة اعتبار الحضارة الإسلامية، في الاقتصاد والثقافة. وذلك نتيجة لفشل الغرب في تحقيق طموحات شعبونا، في الاقتصاد والثقافة. و ذلك نتيجة لفشل الغرب في تحقيق طموحات شعبونا، وهكذا بدأت غيوم الهيمنة الاستعمارية في الانقشاع.

لثقافة الفرد و محيطه آثار على سلوك الفرد وتصرفاته، و هو ما يمنعنا من تطبيق النظريات الغربية أو الشرقية في العلوم الاجتماعية على مجتمعنا الإسلامي. إذ لا يمكن دراسة و فهم الشعوب الإسلامية و تصرفات أفرادها إلا من خلال منظار خاص يأخذ في عين الاعتبار كلا من التاريخ و الحضارة و الثقافة، بل يأخذ في عين الاعتبار كل مقومات هذه الشعوب.

لقد جاء الإسلام رحمة للعالمين، من خالق عالم خبير يعلم الجهر وما يخفى. وقد جاء القرآن الكريم ليبين للناس ما هو خير للعباد في الدنيا والآخرة، به كثير من القصص والأوامر والنواهي والقيم الأخلاقية، وتوجيهات للأنبياء والرسل عن أساليب التعامل مع الناس. وهو يوضح أسباب العلل والأمراض النفسية، إلى جانب منهج الهداية والاطمئنان، وكيفية التعامل مع الناس والحصول على رضا الناس ورضا الله تعالى. وبالتالي فإن الإسلام وما يحتويه كل من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هي أسس لبناء نظرية في علم النفس تسمح لنا بفهم النفس البشرية والتعامل معها.

إن الاعتماد على النظريات الغربية في فهم الفرد المسلم عادة ما تعطيني نتائج مظلمة، وهو ما يتطلب إيجاد نظريات جديد تسمح لنا بأخذ الواقع الثقافي والقيمي والعقدي بعين الاعتبار في فهم الفرد والمجتمعات المسلمة، وهو ما سنتطرق له من خلال هذا البحث.

أهمية الثقافة في علم النفس:

لقد اعتاد مُتفقو العالم الإسلامي نقل العلوم الاجتماعية والغربية وتطبيقها في مجتمعاتهم، دون اعتبار لما لأخلاق المجتمعات و ثقافتها من أثر على هذه العلوم. إن علم النفس هو أحد المواضيع التي لا يمكن عزل ما للثقافة من أثر على النظريات و نتائج البحوث.

سوف نتطرق في هذا الموضوع إلى ما للثقافة من أثر على تصرفات الأفراد و دوافعهم، مبتدئين بتحديد كل من مفهومي الثقافة و علم النفس. فالثقافة كما جاء في تعريف تايلور هي "ذلك الكل المعقد، والذي يجمع كلا من المعرفة والاعتقاد و الفن والأخلاق والقانون والتقاليد ، وأي قدرات أو عادات يتعلمها الفرد نتيجة كونه عضو في المجتمع ".

أما علم النفس فهو العلم الذي يدرس سلوكيات الأفراد الأسوياء ودوافعهم في المواقف المختلفة. سواء تفاعلهم مع بعضهم البعض في المجتمع (علم النفس الاجتماعي)، أو في مجال التربية والتعليم (علم النفس التربوي)، أو في مجال الصناعات والتنظيم (علم النفس المهني والتنظيمي). كما يدرس السلوكيات الشاذة والغير سوية لمعرفة أسباب شذوذها ومحاولة علاجها (علم النفس المرضي). يقول الأدباء بأن الفرد ابن بيئته ، أن الأفراد يتأثرون بمحيطهم الجغرافي و الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ، كل هذه العوامل تؤثر على أنماط الأفراد وشخصياتهم وسلوكياتهم وتحدد أنماط تصرفاتهم . إذ لا يمكن لبديوي أن يتصرف بنفس الطريقة التي يتصرف بها حضري ، كما لا يمكن للفرد العربي أن يتصرف مثل الفرد الأوروبي أو الأمريكي إلا إذا عاش وسطهم لفترة طويلة أو عاش في وسط على منوالهم. و هكذا فإن تصرف العربي يعتبر شاذاً و ملفتاً للانتباه بالنسبة للغربي (طريقة الوضوء والصلاة على جانب من الطريق في مدينة أوروبية)، وكذلك الحال بالنسبة للأوروبي في الوسط العربي والإسلامي، وكيفية مواجهته لبعض المواقف والأمثلة متعددة في هذا المضمار.

إذ ليس من المنطقي و لا من الممكن فهم فرد يعيش في مجتمع معين و ينتمي إلى حضارة معينة عن طريق النظر إليه بمنظار آخر وفي ضوء نظريات و فرضيات تبلورت في مجتمع مغاير. إن كان ذلك ممكناً بالنسبة للعلوم الدقيقة كالفيزياء والكيمياء مثلاً، إلا أن ذلك غير ممكن بالنسبة للعلوم السلوكية. لقد تظن العلماء الغربيون إلى هذا الموضوع، وأوضح مؤشر على ذلك إقرارهم بعدم إمكانية تطبيق نفس الروايز النفسية في مجتمعات مختلفة، وضرورة بناء روايز جديدة أو تعديل تلك الموجودة حتى تلائم المجتمع الجديد.

لقد ظهرت النظريات النفسية المعروفة في مجتمعات معينة ونتيجة لظروف وكنتيجة لأنماط من العيش والتعامل، وفي ظل منظومة متكاملة من القيم و العادات والتقاليد التي تختلف كلية عن كل ما هو متواجد في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

إن كانت دوافع الفرد الغربي مادية بالدرجة الأولى، يعمل على استغلال جنته الحالية بكل الوسائل والطرق عن طريق إشباع شهواته وغرائزه. وهكذا يؤدي شرب الخمر إلى ارتكاب حماقات، مما قد يؤدي إلى انحراف أبنائهم كظهور ما يسمى بعقدة أوديب والشذوذ الجنسي. أما دوافع الفرد المسلم فتُسقل بالأخلاق، وتكون متماشية مع ديننا الحنيف، ويمارس الجنس في غيبة الأبناء والأجانب على السواء، وهو ما يجنب أبنائنا عقد المجتمع الغربي. وحتى إن كانت لهم مشاكل فهي مختلفة عن تلك الموجودة في المجتمع الغربي، وهو ما يصعب فهمه بمنظار غير المنظار الإسلامي المحلي.

إن البحث في دوافع تصرفات أفراد المجتمعات المختلفة ومشاكلهم وانشغالاتهم، هي مسؤولية علماء نفس هذه المجتمعات نفسها. وقد جربت روائز واختبارات نفسية غريبة على عينات من المجتمع الإسلامي لدراسة بعض الظواهر النفسية بمنظار سيكلوجي غربي، فوجد أن كل الأفراد موضوع التجربة مرضى وغير متكيفين. وهو دليل على عدم صلاحية هذه الطريقة في دراسة مشاكل أفراد المجتمع الإسلامي.

لهذا يجب تعزيز اتجاه دراسة الفرد المسلم في إطار مجتمعه وحضارته وثقافته. فعلى علماء النفس المسلمين تكثيف جهودهم لجمع الدراسات المتناثرة ومحاولة تنظيمها بطريقة علمية لتكون في صورة مدرسة مستقلة لدراسة النفس البشرية في ظل الإسلام وعادات وتقاليد ومشاكل معتققيه.

المشاكل النفسية للمجتمع المعاصر

تعرف المجتمعات المعاصرة مجموعة من المشاكل النفسية الناتجة عن تراكم المشاكل الاجتماعية. وقد أتى الإسلام بتوجيهات تساعد المؤمن على تجنب كثير من المشاكل، منها:

من أهم المشاكل والأمراض التي تواجه المجتمعات الغربية، رغم نمو مواردها المادية وتطور إمكانياتها في البحث والعلاج، هي الأمراض النفسية. هذه الأمراض هي إحدى نتائج الحضارة المادية، والتنافس وعبادة المال، والعمل على الحصول عليه بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة اعتقاداً منهم أن ذلك يجلب السعادة والهناء لهم. إلا أن خيبة أملهم كانت كبيرة عندما وجدوا أن إمكانياتهم المادية لم تزدهم إلا بعداً عن السعادة المنشودة. فكانت الأزمات النفسية، وكانت الطرق السلبية للهروب من الواقع عن طريق الخمر والمخدرات. وكانت نتيجة كل ذلك كثرة الأمراض النفسية وارتفاع نسب الانتحار.

1. ارتفاع مستوى القلق:

من المشاكل التي يعاني منها المجتمع المعاصر القلق، الذي هو نتيجة تعقد الحياة، وتكاثر متطلباتها. ومن أسباب ذلك مبالغة التفكير في المستقبل وعدم الثقة بالله، والاهتمام المفرط بالوقت.

2. تزايد الاضطرابات النفسية:

يعرف الغرب استفحال ظاهرة الاضطرابات النفسية، وتزايد عدد الأخصائيين النفسيين وخاصة في المجال الإكلينيكي، وتضاعف أعداد العيادات النفسية وتزايد عدد زبائنهم، وهو ما يوضح ما تعانيه المجتمعات الغربية من فراغ عقدي وخوف من المستقبل.

3. الخوف من المستقبل:

إن التربية التي نقدمها لأبنائنا تربية مستقبلية. فهم دائماً ينظرون إلى الأمام، إلى اليوم الذي تتحقق فيه كل الأمنيات والأهداف، وهو ما لا يمكن تحقيقه. إذ أنمنية تأتي الأفراد دون إدراك كل الأهداف التي كانوا يصبون إليها. فالطفل يفكر في اليوم الذي سوف يحصل فيه على الشهادة، ثم من شهادة إلى شهادة و من مرحلة إلى مرحلة دون الحصول على قناعة و يبقى الفرد طول حياته متتبعا للسراب نتيجة طموحات الأفراد و طبيعة تكوينهم، و أحد سمات تربيتهم.

4. الإقبال على الآفات الاجتماعية:

هناك إقبال مروع في المجتمعات الحديثة على مجموعة من الآفات الاجتماعية. فالإدمان على التدخين وتناول الكحول أصبحت عادات وممارسات مقبولة اجتماعيا رغم تحذيرات علماء الاجتماع والأطباء. إضافة إلى ذلك نجد انتشار تناول المخدرات وهي آفة عرفت انتشارا خطيرا في المجتمعات المعاصرة، وقد بدأت تتوسع في المجتمعات العربية والإسلامية.

5. تزايد عدد المقدمين على الانتحار:

تعرف المجتمعات المادية المعاصرة تزايد نسب المنتحرين، وذلك لأن أهدافهم مرتبطة بالماديات وأن فشلهم في تحقيق أهدافهم يجعل لا معنى لحياتهم مما يدفعهم إلى الانتحار. وقد عرفت اليابان، وهي من بين الدول الصناعية والمتطورة نسبا مرتفعة بين الشباب، فيكفي الفشل في الامتحان أو الحصول على مهنة بعينها أو الطرد من العمل ليصبح سبابا للانتحار.

وغيرها من المظاهر النفسية السلبية التي تعرفها المجتمعات المادية. وهو ما يساهم الإسلام في مواجهته. وقد تقطنت الدول الغربية إلى أهمية الإسلام، مما أدى بمسؤولي السجون إلى السماح بالجمعيات الإسلامية وأئمة المساجد بزيارة السجناء ودعوتهم، وقد كان ذلك سببا في هداية عدد كبير من المجرمين نزلاء السجون إلى الإسلام.

أسس الفلسفة النفسية في الإسلام

لفهم الفرد المسلم، لا بد من فهم مقومات دوافعه وتصرفاته، ولا يتسنى لنا ذلك إلا عن طريق معرفة المبادئ التي يمكن أن تساعد على فهم هذه التصرفات و دوافعها. وبدون ذلك لا تكون محاولات فهم تصرف الفرد المسلم إلا تخمينات خاطئة، و استعمال منظار غير مناسب، مما يعطينا تفسيرات غير واقعية.

ترتكز الفلسفة النفسية في الإسلام على مبادئ أساسية أهمها: الأخلاق والإيمان بالله و بملأئكته وكتبه ورسله والقدر خيره و شره واليوم الآخر.

1. **الأخلاق:** إن العقيدة الإسلامية مبنية على مبادئ أخلاقية. و قد قال الله تعالى في سورة القلم: "إنك لعلی خلق عظیم" (القلم/ 1). وقال الرسول عليه السلام: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، وخياركم خياركم لنسائكم" (رواه الترمذي وقال حديث حسن). و قال أيضاً: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، و أن الله يبغض الفاحش البذي" (رواه الترمذي وقال حديث حسم). إلى غيرها من الآيات التي تسفل تصرفات المسلم. من هنا نستخلص أهمية المبادئ الإسلامية و المبنية على الأخلاق، وأثرها على تصرفات الفرد المسلم. وهذا يختلف كثيراً عن دوافع تصرفات الفرد المادي سواء كان غريباً أو شيوعياً، والذي لا يمكن فهم تصرفاته إلا من خلال الدوافع المادية. كما أن العلاقات بين أفراد هذه المجتمعات مادية و نتيجة لمصالح متبادلة. و متى انتهت هذه المصالح انتهت العلاقة و فسدت. وهو عكس المسلم الذي يبني غالبية علاقاته على أسس أخلاقية.

2. **الإيمان بالله تعالى:** إن الإيمان بالله تبارك وتعالى هو أساس تصرفات الفرد المسلم، و هو أساس جهاده و استشهادته وكافة تصرفاته. كما أن الاعتقاد بخلق الله تعالى للبشر، مفاده أن الله تعالى يعرف أسرار النفس البشرية، وهو يوجهها عن طريق كتبه إلى ما فيه خيرها و صلاحها في دنياها وآخرتها. وبالتالي فإن تصرفات الفرد المسلم تتأثر بتوجيهات الخالق.

3. **الإيمان بملأئكته و كتبه:** إن الإيمان بوجود الله تعالى، وبكونه خالق الكون بما في ذلك البشر، وإرساله الكتب السماوية عن طريق الملائكة عليهم السلام، يؤدي بنا إلى الاعتقاد بصحة ما جاء في هذه الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم، وبالتالي فإن تطرق هذا الأخير إلى النفس البشرية وخفاياها، هو أساس علم نفس إسلامي. أما البحوث العلمية فيكون هدفها هو ترسيخ هذه المبادئ وتوضيحها وزيادة إلقاء الضوء على الجوانب غير المذكورة في القرآن الكريم دون التعارض معه. إذ لا يمكن أن نتصور أن الباحث النفسي يصل إلى نتائج مخالفة لما أتى به خالق الباحث نفسه.

4. **الإيمان برسله:** يؤمن المسلمون بعظمة الأنبياء، و هكذا فإن الرسول (ص) معصوم من الخطأ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لذلك يجب اعتبار توجيهاته بحيث تكون أحاديثه وتصرفاته في مختلف القضايا عبارة عن مواقف ذات دلالة يجب تنظيمها واستنباط نظريات علمية لا يمكن الاستغناء عنها للمساعدة على فهم النفس البشرية.

5. الإيمان بالقدر خيره وشره: كثيرا ما يتصرف الأفراد تصرفات قد تؤدي إلى تغيير مجرى حياتهم سواء إيجابا أو سلبا. يحاول علماء النفس تفسير هذه التصرفات تبعا لعلومهم الوضعية، إلا أنهم لا يجدون لذلك أسبابا منطقية، و مع ذلك فهم يأتون بمختلف التعليلات غير المقبولة. لهذا فإن الأخصائي النفسي المسلم، و برغم التعليلات التي قد يقدمها، فهو يترك مجالا لتدخل القدرة الإلهية، مما يؤدي إلى ختم أحكامه بقوله "والله أعلم".

6. الإيمان باليوم الآخر: يؤدي الإيمان باليوم الآخر و بوجود الحساب و ما يترتب عنه من جزاء أو عقاب حسب عمل الفرد، يؤدي بالفرد المسلم إلى خشية العقاب والخوف من النار، وبالمقابل حب الجزاء و الرغبة في الجنة. مما يؤدي إلى التأثير على تصرفات الأفراد وسلوكاتهم. وهو ما يساعد على فهم غالبية تصرفات المسلمين.

من خلال تطرقنا للمبادئ الإسلامية السالفة الذكر، والتي هي أساس العقيدة الإسلامية، يمكننا فهم تصرفات الفرد المسلم. وهو ما يصعب على الأخصائيين النفسيين الغربيين فهمه بدقة. ودليل ذلك عدم قدرتهم على قهر الثورات التي قامت بها في العالم الإسلامي، وعدم نجاح كل الطرق الجهنمية التي استعملها جلاو الاستعمار والتي كانت مبنية على أسس علمية غريبة نتيجة التجارب و البحوث السلوكية الغربية. فلم يدركوا بمنظورهم الغربي، النشاط الجهادي ولا طريقة وأسباب تشبث المسلمين بعقيدتهم بالرغم مما يعانونه من مكر الماكين. من هنا نستخلص أنه لا بد من الانطلاق من فهم للعقيدة الإسلامية وأخذها بعين الاعتبار من أجل فهم شخصية الفرد المسلم.

إن الإسلام يتحكم في كل تصرفات الفرد المسلم سواء كان منعزلا أو كان من خلال تفاعله مع أفراد المجتمع. وفي كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. لهذا من المستحيل فهم تصرفات المسلم ودوافعه وشخصيته دون اعتبار لهذا المحرك المهم و الأساسي و الذي هو الإسلام.

أسس التصنيف النفسي الإسلامي للمجتمع:

يصنف الإسلام الأفراد وفق مستوى إيمانهم، هناك الكافر وهناك المنافق وهناك المؤمن، ولكل منهم سلوكه وقيمه وممارساته.

1. الإنسان الكافر: فالكافر هو الذي يشرك بالله ولا يؤمن به، وبالتالي فهو يعصاه ولا يؤمن بكتبه ورسله، ويتجلى ذلك في العديد من الصفات والممارسات الاجتماعية.

2. الإنسان المنافق: وهو الذي لا يؤمن بالله ولا برسله وكتبه، ومع ذلك فهو يتظاهر لغيره بالإسلام والإيمان خوفاً على حياته أو حتى ينال القبول الاجتماعي، والمنافق بدوره يتميز بمجموعة من الصفات والسلوكات والممارسات التي تميزهم، وقد حذر الله تعالى منهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية 8-13).

3. الإنسان المؤمن: يتميز المؤمن بمجموعة من الخصائص النفسية والممارسات الاجتماعية. فهو يؤمن بالله تعالى ورسله وكتبه، ويعمل بما جاء به الإسلام سرا وعلانية. "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" (15) (الحجرات/ 14-15). وقال أيضاً: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: 62 - 64).

- وعن النبي عليه الصلاة والسلام قوله: "عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين، إن أصابته سراء شكر فكان خير له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (أخرجه النسائي في سننه).

وهكذا يساهم الإسلام في تصنيف الأفراد مما يساعدني على توقع تصرفاتهم وممارساتهم الاجتماعية والمهنية، دون اعتبار لمظاهرهم التي كثيرا ما تكون خادعة.

التركيب النفسي للفرد من منظور إسلامي

لقد كتب الكثير عن نظرية التحليل النفسي التي أتى بها فرويد وتلامذته من بعده مثل يونغ وأدلر. لقد قسم فرويد النفس البشرية إلى كل من الأنا والانا الأعلى والهو . حيث أن الهو يمثل رغبات الفرد المختلفة وغرائزه التي يسعى الفرد إلى إشباعها. ألا أن الأنا الأعلى وهو يتمثل في الأخلاق يمنع الفرد من القيام ببعض السلوكات المنبوذة اجتماعياً، مما يؤدي إلى كبتها لكونها غير المقبولة. أما الأنا فإنها حالة نفسية تعمل على التوفيق بين شهوات الفرد وموانع الأخلاق والمجتمع. ألا أننا لا نكاد نجد ذكراً في الكتب النفسية إلى التقسيم النفسي من وجهة نظر إسلامية، والتي أتى بها الإسلام قبل ظهور فرويد وتلامذته وتباعه .

هناك صراعات نفسية داخل الكائن البشري تمثلها قوى مختلفة، قوى الخير وقوى مختلفة، قوى الأخلاق وقوى الشهوة التي تسعى لإشباع الغرائز الحيوانية.

لقد قسم الإسلام النفس البشرية إلى ثلاثة أقسام وهي: النفس الأمارة بالسوء، و النفس اللوامة و النفس المطمئنة.

أ. النفس الأمارة بالسوء: وهي التي تتمثل في الإنسانية و الرغبة في تحقيق الشهوات الحيوانية، والتي يتزعمها الشيطان الرجيم و يعمل على الإيقاع بالمؤمنين.

ب. النفس اللوامة: وهي التي تتمثل في جانب الخير عند البشر مما يمنع الفرد السليم من ارتكاب المعاصي، وحتى وإن ارتكبها فإن ذلك يعود عليه بالندم مما يدفعه إلى التوبة والاستغفار. و قد قال عليه الصلاة والسلام (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون).

ج. النفس المطمئنة: التي تكون لدى المؤمنين حقاً الذين يخافون وعيد الله و يعملون على نيل رضاه. وبهذا نستخلص أن الإسلام كان سابقاً إلى توضيح أقسام الشخصية الإسلامية و صراعاتها بين الحق والباطل، بين القلق والاطمئنان.

إن التقسيم النفسي الإسلامي يساعد على فهم كثير من مشاكل أفراد المجتمع الإسلامي والبشري من طغيان وتجبر، ومن ندم وتوبة، ثم اطمئنان و هناء. وأي طريقة أخرى لفهم نفسية الفرد المسلم تكون بعيدة عن واقع الفرد والمجتمع الإسلاميين وانشغالاتهما.

دور الإسلام في معالجة المشاكل النفسية للمجتمع المعاصر

تساعد التوجيهات الإسلامية على المحافظة على السلامة النفسية للفرد و تجنبه كل ما يعكر صفوه. من هذه التوجيهات ما يلي:

1. الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره: من العوامل المساعدة على هناء المؤمن وراحته النفسية الإيمان بالقدر خيره وشره. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" (رواه البخاري ومسلم). وقال أيضا: "من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا." (رواه الترمذي).
2. الصبر على المكاره: يدعوا إلى الصبر والتحمل. يقول الله تعالى (و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر). و يقول أيضا: و لنبلونكم بشيء من الخوف و الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات و بشر الصابرين) [البقرة / 155]. و يقول أيضا (...وأن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)[آل عمران / 186] و قال عليه السلام: (عجا لأمر المؤمن أن أمره كله خير، و ليس ذلك لأحد إلا المؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[رواه مسلم]. وهكذا يمكن للمسلم أن يتغلب على الصعوبات والمشاكل عن طريق الصبر ساعة الغضب، والعمل على التغلب على الغضب و الصبر عند المقدرة. هذه المشاكل والفواجع هي السبب الرئيسي لكثير من الأمراض النفسية التي يعاني منها أفراد المجتمعات الإسلامية.
3. التوكل على الله: من المبادئ الإسلامية التي طعن فيها الأعداء موضوع التوكل على الله في الأعمال والاستسلام له وقبول قدره. إلا أن لهذا الموضوع أثر جد إيجابي على صحة المسلم. يقول تعالى: "رب المشرق و المغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلا" (الطلاق / 3). و قال عليه الصلاة و السلام "ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله" (الشهاب). وهو ما يوضح القوة النفسية للمؤمن و هو ما يجنبه الأزمات والنكسات.

من مميزات الفرد المسلم اتزانه النفسي وصحته. لقد اهتم الإسلام بصحة المسلم النفسية، فكان الاطمئنان هو هدف الفرد المسلم، الذي أسلم أمره لله تعالى، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الإيمان. وما إيمان المسلم بالقدر خيره وشره إلا طريقة مساعدة للفرد على عدم الندم و عدم القلق الزائد عن حده و خاصة عند حدوث الفواجع، و ذلك عن طريق إرجاعها إلى مشيئة الله تعالى، و لكن ذلك شرط حدوثها رغم إرادتنا. من عوامل الطمأنينة في الإسلام، ذكر الله في السراء والضراء. يقول سبحانه و تعالى: "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد / 28).

من هنا نستنتج أن الإسلام بأوامره و نواهيه، يؤدي إلى الصحة النفسية، و هو ما لم تتمكن الثقافة المادية من إحلاله في قلب الفرد الكافر والملحد رغم الإمكانات المادية التي لم تؤد إلا إلى يؤس الفرد الغربي والشيوعي والزيادة في نسب الانتحار.

وهكذا نجد أن الإسلام قد اهتم بالصحة النفسية للفرد والمجتمع، باعتبارها نتيجة لامتنال الفرد إلى أوامر ربه وطاعته، مما يؤدي إلى الراحة و الاطمئنان، من خلال مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وفيما يلي بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر:

- "قاله خير حافظا و هو ارحم الراحمين" (يوسف/ 12)

"قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (التوبة/ 51)

- تلاوة القرآن الكريم، لقوله تعالى: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" (الرعد / 28)

- الصبر على المكاره لقوله تعالى: "وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" (العصر/ 3)،

- "وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة/ 177)

- يوصي سبحانه وتعالى بالصبر ويتجنب الحزن، قال تعالى: وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران: 139).

- "يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" (سورة يوسف/ 87) .

وقد فضل الله تعالى المسلمين، فكل ما يصيبهم خيرا، فإذا أصابتهم مصيبة صبروا وحمدوا الله على ما ابتلاهم به فنالهم خير وثواب من عند الله، وإن أصابهم خيرا حمدوا الله على خيره وشكروه، فيزيدهم من خيره وأجره، وهو ما يجعل المسلم المؤمن صابرا قابلا لما كتبه الله له وهو ما يؤدي إلى اطمئنانه وصحته النفسية.

خاتمة:

لتقافة الفرد ومحيطه آثار على سلوك الفرد وتصرفاته، وهو ما يمنعنا من تطبيق النظريات الغربية أو الشرقية في العلوم الاجتماعية على مجتمعنا الإسلامي. إذ لا يمكن دراسة و فهم الشعوب الإسلامية و تصرفات أفرادها إلا من خلال منظار خاص يأخذ في عين الاعتبار كلا من التاريخ والحضارة و الثقافة، بعين الاعتبار كل مقومات هذه الشعوب.

يساهم الإسلام في توضيح شخصية الفرد وهو يفرقها ما بين مؤمن ومنافق وكافر، ولكل فئة خصائص مميزة لشخصيتها وممارساتها في السرّ والعلن. كما أن الإسلام يفرق الأفراد حسب أنفسهم وشخصياتهم من حيث مستوى الاطمئنان، إذ يرى أن هناك النفس المطمئنة والنفس اللوامة والنفس الأمانة بالسوء. حيث يقدم الإسلام تفاصيل لهذه الأنفس وهو ما يمكن أن يكون أساس نظرية فيما يمكن أن نطلق عليه علم النفس الإسلامي.

لقد جاء الإسلام رحمة للعالمين، من خالق عالم خبير يعلم الجهر وما يخفى. وقد جاء القرآن الكريم ليبين للناس ما هو خير للعباد في الدنيا والآخرة، به كثير من القصص والأوامر والنواهي والقيم الأخلاقية، وتوجيهات للأنبياء والرسل عن أساليب التعامل مع الناس. وهو يوضح أسباب العلل والأمراض النفسية، إلى جانب منهج الهداية والاطمئنان، وكيفية التعامل مع الناس والحصول على رضا الناس ورضا الله تعالى، من أجل الوصول إلى درجة من الإيمان والطمأنينة والارتياح، وهي أسس الصحة النفسية .

الهوامش:

- القرآن الكريم
- بليق عز الدين (1978) منهاج الصالحين . دار الفتحة. بيروت.
- نجاتي محمد عثمان (2001) مدخل إلى علم النفس الإسلامي. دار الشروق 'القاهرة).
- رزيق معروف (1989) علم النفس الإسلامي. دار المعرفة.
- Badri B. Malik (1979) The Dilemma of Muslim Psychologists. MWH London Publishers, London.